الإدارة الفرنسية في تونس
١٩٣٩ _ ١٩٥٥

ميثم عبد الخضر جبار السويدي
وزارة التربية الكلية التربوية -المركز الدراسي في بابل

المقدمة

أعطت الفترة من تاريخ الاحتلال الفرنسي نتائج في صياغة مشاريع عديدة واخصها السياسية والإدارية معا اذ إن الجانب السياسي يعطينا مؤشرا مهما عن الأوضاع السياسية التي عاشتها تونس في تلك الفترة باعتبارها منطقة نفوذ للاحتلال الفرنسي في منطقة العربية والأفريقية معا و لعقود طويلة من الزمن .

وقد أنتجت تلك المرحلة من الاحتلال للإدارة الفرنسية في تونس مبدأ التنافس الواضح لكل من بريطانيا وايطاليا بدليل أن فرنسا تسارعت في توجيه أنظارنا إلى تونس في أعقاب احتلالها إلى جزائر .

تكمن أهمية البحث من جانبين سياسي وأداري ففي الجانب السياسي يعطينا مؤشرا مهما على الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها بلاد المغرب العربي بوجه عام وتونس على وجه الخصوص والتي يمكن عدها أنها جاءت بعد اخطر مرحلة مرت في تونس منذ الحرب العالمية الأولى بحيث كادت تلك الأحداث أن تؤدي بالبلاد إلى الهلاك والدمار. هذا بالإضافة إلى الدور الاستعماري الذي لعبته قوى أوربية في سعيها لإيجاد مناطق نفوذ لها في المنطقة العربية والأفريقية طيلة عقود عديدة من الزمن .

قسم البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة فضلا عن قائمة بأسماء المصادر التي اعتمد عليها الباحث، تم المبحث الأول استعراض الجذور التاريخية للاحتلال الفرنسي لبلاد المغرب العربي والعوامل التي شجعت فرنسا في توجيه أنظارنا نحو تونس بعد احتلالها للجزائر، وشعور حكام تونس (البايان) بالخطر الفرنسي على تونس وكذلك هناك العديد من الدول التي اتجهت أنظارنا إلى تونس فقد كانت تنافسها كل من بريطانيا وايطاليا.

ورغم الجهود التي بذلها حكام تونس للنهوض بالبلاد وإصلاح شؤونها فقد تورطوا في علاقتهم المالية بالأجانب واستعانوا بالشركات البريطانية والفرنسية والايطالية في مشروعاتهم وبذلك فقد مهدوا الطريق أمام المستعمرين ليحققوا مطامعهم في البلاد.

أما فيما يخص المبحث الثاني فقد سلط الضوء على التنظيمات السياسية للحركة الوطنية التونسية للفترة من عام ١٩٢٠ _ ١٩٣٩ حيث كانت الحركة الوطنية التونسية تتمثل بشخصيات معينة كان على رأسها عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الدستوري التونسي والذي كان يطالب باستقلال تونس عن فرنسا طيلة الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وتقوم حركة الإصلاح لدى الثعالبي على أن مصدر التشريع الملائم للبلاد العربية هو تراثها العربي الإسلامي، وان العرب امة واحدة لابد من أن تتوحد فدعا إلى الوحدة العربية .

وقد عالج المبحث الثالث الإدارة الفرنسية في تونس فضلا عن الحركة الوطنية التونسية خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها إلى أن نالت تونس استقلالها في ٢٠ آذار من عام ١٩٥٦، حاولت السلطات الفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أرضاء الحركة الوطنية فطرحت مشروعا للإصلاح يستند إلى تأسيس حكومة نصف أعضاؤها من تونسيين والنصف الآخر من الفرنسيين وعلى الحد من النفوذ الفرنسي في تونس وقد رفضت الحركة الوطنية المشروع لأنه لم يضمن أية استجابة إلى مطالبيها وأعلنت فرنسا مشروعا جديدا للإصلاح في آب ١٩٤٧ وقد رفضته الحركة الوطنية أيضا، وكانت تلك بداية الثورة التونسية والتي أفضت إلى استقلال تونس عام ١٩٥٦. ومما شجعني على أن أتناول موضوع البحث هو أن الدول الاستعمارية وخاصة فرنسا قد لبست ثوب الرهبان وأعطت لنفسها صفة الحضارة والإنسانية في الوقت الذي قسمت فيه البلاد العربية إلى أشلاء، فتحاشت كلمة استعمار واستغلال وأبدلتها بكلمة جديدة في قاموس الدبلوماسية وهي كلمة (الانتداب) وادعت فرنسا أنها ستعمل على رفع مستوى البلاد التي كانت خاضعة تحت نير الانتداب حتى تصل بها إلى مرحلة تستطيع بواسطتها تلك الدول من أدارة سياستها بنفسها . اعتمدت البحث على العديد من المصادر المتنوعة، كان لبعضها أهمية كبيرة في ألقاء الضوء على متابعة تطورات الأحداث في تونس وخاصة فيما يتعلق بالحركة الوطنية التونسية، منها كتاب الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة، ١٨٣٠_١٩٥٦، تونس وكتاب علي ألحبوبي، انتصاب الحماية الفرنسية على تونس، وكتاب محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، لما تضمنته تلك المصادر من معلومات وافية عن فترة موضوع البحث، فضلا عن العديد من المصادر التي أغنت البحث في الكثير من المعلومات . وفي الختام أتمنى أن أكون قد وفقت في أعطاء

الموضوع حقه فلقد حاولت قدر الإمكان الوصول إلى أراء موضوعية موثقة حول الموضوع فان أصبت فمن الله التوفيق وان أخطأت فمن نفسي.

المَبحَث الأوَل

الجذور التاريخية للاحتلال الفرنسي على تونس :

في عام ١٥٤٧ ألحقت تونس بالولايات العثمانية[١] وظل ذلك الوضع حتى نهاية القرن السادس عشر حين ضعفت سلطة الدولة العثمانية على تلك البلاد ولم يصبح لها غير السلطة الاسمية فقط [٢] , بل أصبحت السلطة الفعلية بيد ما يسمى (بالبايات) [٣] .إلا إن فرنسا قد وجهت أنظارها إلى تونس في أعقاب الاحتلال الفرنسي على جزائر[٤] , حينها شعر (بايات) تونس بالخطر الفرنسي على تونس , ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الحد بل أن هناك العديد من الدول التي اتجهت أنظارها إلى تونس فقد كانت تنافسها كل من بريطانيا وإيطاليا ورغم الجهود التي بذلها (البايات) للنهوض بالبلاد وإصلاح شؤونها فقد تورطوا في علاقاتهم المالية بالأجانب واستعانوا بالشركات البريطانية والفرنسية والإيطالية في مشروعاتهم وبذلك فقد مهدوا الطريق أزاء المستعمرين ليحققوا مطامعهم في البلاد

وكانت الأوضاع في تونس هي شبيه بالأوضاع التي كانت سائدة في مصر أيام الخديوي إسماعيل[٥] بل كانت النتائج التي ترتبت عليها متماثلة لدى البلدين كان البايات يحكمون في تونس حكماً مستقلاً ولكنهم كانوا تابعين إلى الدولة العثمانية من الناحية الروحية , وكان احد البايات وهو الباي (أحمد باشا) (١٨٣٩ – ١٨٥٥) يرغب في إصلاح البلاد , وكان من بين تلك الإصلاحات هو إنشاء مدرسة عسكرية , ودعا ضباطاً فرنسيين للعمل بها كأساتذة وإنشاء مصنعاً حربياً , وكذلك قام الباي بتشجيع التعليم , وقد زار فرنسا فأعجب بما رأه فيها , وبحضارتها المادية , وحاول بناء قصر يشبه في تصميمه قصر فرساي, وقاد هذا الترف والبذخ إلى وقوع تونس في أزمة مالية ساعد على تفاقمها[٦] فالحركة الإصلاحية في تونس ارتبطت بالمشكلة المادية التي نشأت بسبب إسراف البايات وطمع الوزراء ومن ثم العجز الذي أصاب الميزانية العامة للدولة عن مسايرة ما تطلبته وجوه الإصلاح المختلفة من نفقات خاصة بعد انتشار المجاعات والأمراض , وانتهى الأمر بارتباط تونس بالدول الأجنبية سبب الديون التي تراكمت عليها , وأدى ذلك إلى الإشراف المالي عن طريق (لجنة دولية) وبذلك مهد الطريق أمام الاحتلال الفرنسي إلى تونس واستمرت الحكومة التونسية في الاستدانة من الخارج , كما لجأت إلى إصدار سندات على الخزانة واضطرت الحكومة إلى إعلان إفلاسها , وكانت فرنسا تترقب تلك الخطوة ولم يكن يعوقها أي شيء في التدخل في ذلك الوقت إلا منع بريطانيا وإيطاليا , وكان على فرنسا أن تأخذ خطوة حاسمة بشأن تونس فأتفق في ابريل

١- تعود العلاقات العربية – العثمانية إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادي مما جعلها ذات طابع خاص وفريد , فلقد بدأت حركات الاستيلاء على الأراضي العربية سنة ١٥١٦ بعد أن انتصر السلطان سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠) على جيش المماليك في موقعة (مرج دابق) قرب حلب , وهذا النصر فتح أمام العثمانيين أبواب بلاد الشام والحجاز بأجمعها وفي السنة التالية دخل مصر وقضى على دولة المماليك , وبعد ذلك انساح العثمانيون في البلاد العربية يستولون عليها الواحدة بعد الأخرى . للمزيد من التفاصيل , أنظر : ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية , (د.م, ١٩٥٧) , ص١ – ٦ .

٢- احتلت الدولة العثمانية تونس في عام ١٥٧٣ بقيادة سنان باشا العثماني . لمزيد من التفاصيل عن الموضوع ينظر , إبراهيم خليل أحمد , تأريخ السيطرة العثمانية على أقطار الوطن العربي , الموصل , مطبعة جامعة الموصل , ١٩٨٢ , ص١٤١ ,كذلك ينظر : إبراهيم بك خليل , تأريخ الدولة العثمانية العلية , ط١ , عمان , مطبعة مؤسسة المختار , ٢٠٠٤ , ص٣٠٩ .

٣- الباي كان الحاكم العثماني في تونس يدعى بالباي وتعني السيد باللغة العثمانية , وكانت سلطتهم وراثية وهي شبه سلطة الوالي العثمان.

أبو زيدون , وديع , تأريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط , ط١ , عمان , المكتبة الأهلية للنشر والإعلان , ٢٠٠٣ .

٤- في ١٨٢٧/٦/١٦ أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر , ذلك لأن حاكم الجزائر (الداي حسين) كان قد رفض تقديم اعتذار للحكومة الفرنسية , خاصة وإن الأسطول الجزائري كان قد تحطم في معركة (نافارين) في شبه جزيرة المورة باليونان عام ١٨٢٧ , وكان عدد القوات التي أرسلتها فرنسا لاحتلال الجزائر على النحو التالي , ٣٦ ألف من قوات المشاة , وأربعة آلاف من قوات الخيالة إلى جانب السفن والبواخر المحملة بالمؤن وكذلك سلاح المدفعية والعتاد الحربي الضروري للحملة التي كانت بقيادة (الكونت دي بورمون) , ومما يجدر الإشارة إليه إن الجيش كان قد شارك في العديد من الحروب التي خاضها نابليون في القارة الأوربية , ومما أكسبه خبرة في الميدان العسكري , وقد انطلقت الحملة العسكرية من ميناء طولون مروراً بالجزر الاسبانية في البحر المتوسط على ان وصلت إلى ميناء سيدي فرج , وتقدمت لاحتلال الجزائر وتم لها ذلك في عام ١٨٢٧ , لمزيد من التفاصيل ينظر : أبو القاسم سعد الله ' الحركة الوطنية الجزائرية , ج٣ , مطبعة دار العرب الإسلامية , بيروت , ١٩٩٢ .

١- الخديوي إسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) ,هو ابن عم إبراهيم بن محمد علي والي مصر , ولد بالقاهرة في ٢١ كانون الأول عام ١٨٣٠ , وعني والده بتربيته , فتعلم مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية , وفي السادسة عشرة من عمره التحق بالبعثة الدراسية المصرية الخاصة في باريس , فدرس العلوم الهندسية والطبيعية والرياضيات , فضلاً عن إتقانه الفرنسية , ثم عاد إلى مصر , فرحب به عمه محمد سعيد , وعينه رئيساً لمجلس الأحكام , ثم ولياً للعهد , وفي ١٨ كانون الثاني عام ١٨٦٣ أصبح والياً على مصر . ينظر : جرجي زيدان , تأريخ مصر الحديث , ج٢ , ط٢ , القاهرة ,مطبعة الأهالي , ١٩١١ , ص٢٠٣

٢- جميل بيضوي وآخرون , تاريخ العرب الحديث , ط١ , أربد , الأردن , مطبعة دار الأمل , ١٩٩٢ , ص١١٠ .

(نيسان) ١٨٦٨ على تشكيل (قومسيون مالي) كما أطلق عليه , وهو شبيه بصندوق الدين في مصر , وعلى إن الأمر الذي تحكم في تحديد الدولة التي يمكن أن تستفيد من الموقف , وتوجه ضربتها النهائية إلى تونس هو الظروف الدولية والعلاقات بين الدول الكبرى ومصالحها , وقد اهتمت فرنسا بالحصول على موافقة انكلترا بالذات فيما يتعلق بنياتها التوسعية في تونس , كما إن فرنسا كانت قد انتهزت فرصة ضم بريطانيا لجزيرة قبرص لتحقيق هدفها , وكانت تلك الجزيرة تابعة إلى الدولة العثمانية , ففي انعقاد مؤتمر برلين في عام ١٨٧٨[١] دارت المساومات بين ممثلي تلك الدول , فاتفق على أن لا تعارض بريطانيا في أي تدخل فرنسي في تونس مقابل عدم اعتراض فرنسا على اتفاقية قبرص التي كانت تعتبر نقضاً للاتفاقات الدولية السابقة بشأن عدم المساس بأملاك الدولة العثمانية[٢] وكان ما سبق مقدمة لتدخل فرنسا وفرض سلطتها على تونس وذلك عن طريق إيقاع البلاد تحت طائلة الديون وقد منح الأجانب وجالياتهم في تونس حقاً مطلقاً في التجارة والامتلاك للعقارات والأراضي ومساوماتهم مع ابناء البلد مما أدى إلى حكام التدخل الأجنبي تولى الباي (محمد صادق) بعد أخيه (١٨٥٩ – ١٨٨٢) الذي حاول إتمام الإصلاح إلا إن فرنسا كانت تراقب الأمور عن كثب وتحارب كل خطوة إصلاحية وبالفعل فقد حل المجلس الاستشاري الوحيد عام ١٨٦٤ [٣] وعلى الرغم من ذلك فقد تابع محمد صادق سياسة الإصلاح عن طريق الوزير (خير الدين التونسي)[٤] الذي حاول إخراج البلاد بثوب متقدم حديث على منوال الدول المتقدمة , حيث استطاع نقل البلاد من الفوضى والظلم إلى حالة من الأمن والاستقرار والرقي في كافة مرافق الحياة محاولاً حفظ البلاد من الناحية السياسية داخلياً والمحافظة على استقلالها التام من كل تدخل أجنبي, إلا إن الأطماع الأجنبية كانت تقاوم كل حالات الإصلاح ولم تبق من عقبة بوجه فرنسا لتحقيق أطماعها في تونس إلا إيطاليا , وقد حاولت فرنسا أن تحول دون معارضة إيطاليا لها في تونس فأشارت إلا أنه في وسع إيطاليا أن تحتل طرابلس فتجد فيها أفضل تعويض عن أطماعها في تونس وإن فرنسا لن تعترض عليها فيما إذا أقدمت على ذلك العمل[٥] وأصبحت الظروف مناسبة في نظر الفرنسيين حينما عبرت إحدى القبائل التونسية الحدود الفاصلة بين الجزائر وتونس , واقتفت بعض السرقات البسيطة بين الرعاة , فأعدت فرنسا حملتها مدعية إن مهمتها هي تأديب تلك القبائل والتي لا يملك الباي عليها سلطانا وفي ابريل (نيسان) من عام ١٨٨١ عبر الجنود الفرنسيون الحدود واحتلوا الكاف (وطبرقة) دون أدنى مقاومة , كما أنزلت فرنسا بعض قواتها التي أبحرت من ميناء طولون في بنزرت , وبعد احتلالهم لها تقدموا باتجاه العاصمة , وقدم السفير الفرنسي إلى الباي نسخة من المعاهدة المطلوب التوقيع عليها , وأعطى مهلة خمس ساعات للموافقة عليها أو رفضها , وبعدها اضطر الباي القبول بالمعاهدة والتوقيع عليها وعرفت فيما بعد معاهدة بورود[٦]٠وفي يونيو ١٨٨٣ وقع علي باي الذي خلف محمد الصادق بعد وفاته في اكتوبر ١٨٨٧ (معاهدة

١- انعقد مؤتمر برلين (حزيران – تموز ١٨٧٨) لبحث بنود معاهدة سان ستيفانو جرت مفاوضات خلف الكواليس دارها بسمارك نجم عنها تشجيع فرنسا لاحتلال تونس , وعندما ساءت العلاقات الألمانية – الروسية بعد مؤتمر برلين وفي عام ١٨٧٩ , وعندما حشدت روسيا قواتها على الحدود الألمانية أصبحت إمكانية التوصل إلى حلف فرنسي – روسي قائمة لأكدت ألمانيا رسمياً في عام ١٨٧٩ يأنها لا تمانع أي نشاط فرنسي استعماري في شمال أفريقيا وشجعت ألمانا الجهود الفرنسية في احتلال الأراضي الواقعة غرب الجزائر بدلاً من التركيز على الحدود الألمانية ثم أتضح هذا الموقف بصورة جلية عندما أيدت ألمانيا موقف فرنسا في مؤتمر مدريد (مايس – تموز ١٨٨٠) الذي ناقش موضوع الحماية القنصلية في المغرب يقظان سعدون العامر , خصوصيات استعمارية الجمهورية الفرنسية الثالثة ١٨٧٠ – ١٩١٤ و مجلة المؤرخ العربي , العدد ٥١ , ١٩٩٤ – ١٩٩٥ , ص٤٩ – ٧٧ ٠

٢- محمد الهادي الشريف , ما يجب أن تعرف عن تأريخ تونس , ط٣ , مطبعة دار سلاس للنشر , تونس , ١٩٩٣ , ص١١٢ ٠

٣- أحمد أمين , زعماء الإصلاح في العصر الحديث , القاهرة و مطبعة المحفظة المصرية , ١٩٤٩ , ص١٥٧ ٠

٤- خير الدين التونسي : من الألقاب التي اشتهر بها السياسي والمفكر الإصلاحي خير الدين التونسي لقب أبو النهضة التونسية الحديثة , بدأ الرجل حياته مملوكاً في أحد بيوت الأشراف في الأستانة , إلا إن القدر شاء له أن ينتقل على بيت الباي أحمد التونسي ومن ثم تقلد عدة مناصب إدارية مهمة منها وزير ثم رئيس الوزراء وبعدها إلى الصدر الأعظم ٠ ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان وراء تأسيس أول برلمان تونسي منتخب , وللمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية ينظر : سمير أبو حمدون , خير الدين التونسي , بيروت , مطبعة الشركة العالمية للكتاب , ١٩٩٢ , ص٨ ٠

١- علي المحبوبي و انتصاب الحماية الفرنسية على تونس , تونس , مطبعة دار سراس للنشر , ١٩٨٦ , ص٦٠ ٠

٢- نصت معاهدة بوردو على ما يلي : والتي وقعت بتأريخ ١٢ مايو ١٨٨١ على أن تحتل القوات الفرنسية المركز التي تراها مناسبة لاستتباب الأمن والنظام بالحدود والسواحل , ويزول ذلك الاحتلال عندما تقرر السلطات الفرنسية والتونسية إن الإدارة المحلية قادرة على الأمن والنظام , إن الدولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو باي تونس لما كان من غرضهما أن يمنعا إلى الأبد حدوث قلاقل كالتي حصلت أخيرا على حدود الدولتين بسواحل المملكة التونسية وان يحكما علاقات ودادهما القديم وروابط حسن الجوار , وقد اتفقا على عقد من شأنها تحقيق مصالح كلا الجانبين الساميين المتعاقدين , وبناء على ذلك فان فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية قد عين جناب الجنرال بريار نائباً مفوضاً من طرف , فتفق جنابه مع سمو الباي المعظم على بنود الاتفاقية الآتية :
البند الأول ... إن معاهدة الصلح والمودة والتجارة وجميع المعاهدات الأخرى بين الجمهورية الفرنسية وسمو باي تونس قد وقع تأكيدها وتمديدها ٠

المرسى) [1] ٠والتي منحت فرنسا السلطة الكاملة في تونس[2] لقد تمثلت السياسة الاستعمارية الفرنسية في تونس بما يلي ..

١. السيطرة الاستعمارية المباشرة دون إلغاء منصب الباي كما فعلت بالجزائر ٠
٢. تعيين مقيم عام فرنسي دائم بمرسوم دائم من رئيس الجمهورية الفرنسية في تونس وهو حاكم عام للبلاد وسكرتير عام للحكومة التونسية وهو يشبه رئيس الوزراء ٠
٣. إقامة مجلس استشاري للرقابة المالية يمثل أصحاب المصالح من الفرنسيين مهمته النظر في الموازنة والموافقة عليها ٠
٤. وضع نظم إدارية تخدم مصلحة الفرنسيين وتسهيلات لمهمة رجال الاحتلال ٠
٥. احتكار الإدارة العامة والمناصب الكبرى بتعيين رجال عسكريين فرنسيين مسؤولين عنها ٠
٦. وضع رقابة على مدخولات البلاد بحجة تأمين مصالح أصحاب الديون الأجانب على التونسيين مما سهل سيطرة الفرنسيين على الأراضي التونسية لا سيما الخصبة منها ٠
٧. إدخال التعليم الفرنسي في مدارس خاصة لأبناء طبقة معينة من أجل تخريج فئة معجبة بالثقافة الفرنسية لتكون عوناً لفرنسا في السيطرة على الشعب التونسي[3],منعت فيها الثقافة العربية لإدخال بعض أبناء الطبقة الخاصة من العرب الذين تخرجوا منها جاهلين لغتهم وتراثهم ٠

ومنعت المدارس العربية وكان بصيص الأمل يتمثل بجامع الزيتونة الذي اقتصر التعليم فيه على العلوم الدينية واللغوية ونشر الثقافة الإسلامية , لذلك كان جامع الزيتونة الحصن الحصين للثقافة العربية الإسلامية لكل بلاد المغرب العربي و والذي لم يستطع الفرنسيون من السيطرة عليه[4]وفي خلال الحرب العالمية الأولى وقف الشعب التونسي إلى جانب فرنسا آملين أن ينالوا استقلالهم وحق تقرير المصير , وبعد الحرب طالب التونسيون بحقهم في نيل الاستقلال , فنشأ حزب الحر الدستوري التونسي بزعامة (عبد العزيز الثعالبي)[5] , وكان رجالاته من خريجي جامع الزيتونة , وقد استطاع هذا الحزب نيل ولاء غالبية الشعب التونسي بسبب تجاوبه مع مطاليب الشعب التونسي , ولكن الحكومة الفرنسية كانت قد وقفت ضد مطالب الحزب بتحسين أوضاع التونسيين من أجل الوصول إلى هدف الاستقلال , ومن ثم ظهرت حركة (محمد المزالي) التي تنادي بفكرة العمل السياسي الجماعي , ومنها حركة ظاهر الحداد الذي نادى بالإصلاح الثوري بقيام صراع بين المجتمع القومي والرأسمالي الاستعماري ثم ظهرت حركة عالمية نادت بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية وتدعيمها لتكون ركيزة أساسية للنضال السياسي والمقاومة الوطنية , وقد استطاعة تلك الحركة تأسيس نقابات لكثير من الأعمال والمهن[6]٠

البند الثاني ... لأجل إسهام القيان بالإجراءات التي يتحتم على دولة رئيس الجمهورية الفرنسية اتخاذها للوصول إلى الغرض الذي يقصده الجانبان العاليان المتعاقدان فقد رضي سمو باي تونس بان تحتل القوات الفرنسية العسكرية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب الأمن بالحدود والسواحل , ويزول هذا الاحتلال عندما تتفق السلطتان الفرنسية والتونسية وتقرران معاً بان الإدارة المحلية قد أصبحت قادرة على المحافظة على استباب الأمن ,لمزيد من التفاصيل ينظر :إحسان حقي , تونس العربية بيروت , مطبعة دار الثقافة,١٩٦٥, ص١٢٥ ٠

١- شوقي الجمل و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم , تأريخ أفريقيا الحديث والمعاصر , الرياض, مطبعة دار الزهراء , ط٢ , ٢٠٠٢ , ص٢٧٧ ٠

٢- لقد جاءت اتفاقية المرسى لتؤكد على الوضعية التي أصبحت عليها فرنسا وليمكنها من وضع الإدارة التونسية تحت أنظار المقيم العام الفرنسي , علي المحجوبي , المصدر السابق , ص٨٥ ٠

٣- جميل بيضوي وآخرون ,تأريخ العرب الحديث,ط١,أربد ,الأردن,مطبعة دار الأمل ,١٩٩٢ ,ص١١٠ ٠
١- جميل بيضوي وآخرون و المصدر السابق ,ص١١١ ٠

٢- ولد عبد العزيز الثعالبي في عام ١٨٦٧ وتوفي في عام ١٩٤٤ وكان من أبرز قادة النضال في تونس كما أنه صاحب فكرة تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي لمزيد من التفاصيل ينظر صالح الخرفي , عبد العزيز الثعالبي من أثاره واخباره في المشرق والمغرب , تونى , مطبعة دار الغرب الإسلامي , ١٩٩٤ , ص٢٥٤ ٠

٣- محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب , تأريخ العرب الحديث , بيروت , مطبعة الأهلية للنشر والتوزيع , د,ت,ص١٢٣ ٠

المَبحَث الثاني
التنظيمات السياسية للحركة الوطنية التونسية ١٩٢٠ – ١٩٣٩

في عام ١٩١٩ وبعد انعقاد مؤتمر الصلح في باريس[١] أتصل الزعيم عبد العزيز الثعالبي بالمؤتمر , وقدم إليه مذكرة تتعلق باستقلال تونس وتطالب بتطبيق مبادئ ولسن الأربعة عشر[٢] ونشر في باريس كتاب بعنوان (تونس الشهيدة) فضح فيه وبشكل كبير دسائس الاستعمار وإجرامه في حق الشعب التونسي , وقد تلقفت الجماهير المثقفة في تونس والمغرب العربي , الأمر الذي أدى إلى اعتقاله من قبل السلطات الفرنسية ومن ثم زجته في أحد سجونها ٠ومن الغريب أن تعرف بأن المستعمرين كانوا قد اتهموا عبد العزيز الثعالبي بالزندقة والخروج عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف , وكانوا قد حاكموه من قبل على أنه زنديق خاصة بعد نشر كتابه (الروح الحرة في القرآن) وقد اتفقت الرجعية الدينية والمستعمر معاً ضد مفكر ينادي بالإصلاح الديني , وهذا التحالف ظاهر لابد وأن تلفت النظر ولم لحدث مثلها على هذا النحو في أي مكان في الوطن العربي , وهذا يكشف عن حالة خطورة الدعوة الاجتماعية الكامنة وراء الموقف الديني للثعالبي بحيث تألبت الرجعية والاستعمار ضده , وعندما بلغ نبأ اعتقال عبد العزيز الثعالبي بعد موقفه في باريس ونشره كتاب (تونس الشهيدة)[٣] ودفاعه عن القضية التونسية في المحافل الدولية , وكان هذا الأمر هو الذي دفع بجماهير تونس بأن تخرج إلى المظاهرات والاضطرابات في كافة أنحاء تونس , وأخذت تلك الجماهير تدمر كافة المصالح الأجنبية وتحت الضغط الشعبي الهائل أجبرت فرنسا على إخلاء سبيله , فالتف حوله الشعب والطبقات المثقفة والمناضلون ودعوا إلى تأسيس حركة سياسية وطنية تنظم النضال الوطني , فتأسس الحزب الدستوري التونسي ,وانتخب عبد العزيز الثعالبي رئيسا للحزب والمحامي أحمد الصافي أميناً عاماً له فبدأ هذا الحزب في تكوين الشعب والفروع في أنحاء البلاد التونسية جميعاً وبث الدعوة الوطنية في نفوس المواطنين ورص صفوفهم ليكونوا أداة الكفاح[٤] الوطني ضد الاستعمار , وقد قام الحزب الدستوري الوطني في عام ١٩٢٠ على مبادئ تطالب بنظام دستوري لتونس , ومن ثم تأليف حكومة وطنية تكون مسؤولة أمام الشعب , باعتبار أن تونس أول بلد عربي أعلن الدستور في سنة ١٨٦٥ يمنح نواب الشعب حق المشاركة في الحكم وحتى له الحق في خلع الباي ٠إن عبد العزيز الثعالبي إلى جانب كونه زعيم وطني وزعيم حركة وطنية كان من أركان الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والإصلاح الفكري الديني الذي قامت عليه حركة الإصلاح والحرة الوطنية التونسية[٥] وتقوم حركة الإصلاح لدى الثعالبي على إن مصدر التشريع الملائم للبلاد العربية هو تراثها العربي الإسلامي , وإن العرب أمة واحدة لابد من أن تتوحد فدعا إلى الوحدة العربية في الثلاثينيات , وقد كتب في مجلة (الشهاب) على سبيل المثال التي كانت تصدر في الجزائر في عدد حزيران عام ١٩٣٩ تحت عنوان (الوحدة العربية في طريق الاستقلال) كتب يقول (الوحدة العربية كيان ثابت غير قابل للتجزئة والانفصال يشغل قسماً كبيراً من رقعة آسيا الغربية وشطراً كبيراً من أفريقيا يمتد رأسه في الشرق من المحيط العربي إلى المحيط الأطلسي[٦] ولما شعرت فرنسا بقوة وتعاظم القوى الوطنية لجأت إلى المماطلة والتسويف وغيرت المقيم العام بمقيم عام جديد لم تكن تعرف تونس أشد منه دهاء ومكراً وهو (لويسان سان) حيث شرع بإقامة الأحكام العرفية

١- بدأ المؤتمر جلساته في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ , في قاعة المرايا بقصر فرساي قرب باريس اعترافا بالدور الذي قامت به فرنسا في الحرب العالمية الأولى . وحضر المؤتمر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ودورو ولسن وأحد عشر رئيس وزراء من أشهرهم جورج كليمنصور رئيس وزراء فرنسا وديفد لويد رئيس وزراء بريطانيا , كما حضر المؤتمر أثنى عشر وزير للخارجية ولم يُدع مندوب روسيا السوفيتية الاشتراكية لحضور المؤتمر , كما لم تحضر المؤتمر الدول المندحرة بالحرب . للتفاصيل أنظر : محمد يوسف إبراهيم , ونستون تشرشل ودوره في السياسة البريطانية حتى عام ١٩٤٥ , أطروحة دكتوراه غير منشورة , كلية الآداب , جامعة بغداد , ٢٠٠٥ , ص٩٦ ٠

٢- ودرو ولسن : رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الثامن والعشرون . ولد بولاية فرجينيا لعائلة ثرية ودرس الفلسفة والقانون والتأريخ في جامعتي كومبيا وبرنسون حصل على شهادة الدكتوراه في القانون علم ١٨٧٩ , وعمل في مجال التدريس الجامعي . أصبح رئيس جامعة برنسون بين ١٩٠٢ -١٩١٠ . حاكم لولاية نيوجرسي بين ١٩١٠ -١٩١٢ . مرشح الحزب الديمقراطي , وأصبح رئيس للولايات المتحدة ودخل البيت الأبيض سنة ١٩١٣ حتى عام ١٩٢١ اشتهر بمبادئه الأربعة عشر للتفاصيل ينظر : عبد المجيد نعني , تأريخ الولايات المتحدة الأمريكية , بيروت , مطبعة دار النهضة العربية , ١٩٨٣ , ص١٥٩ ٠

٣- صدر كتاب تونس الشهيدة من مطبعة دار الغرب الإسلامي تعريب حمادي الساحلي وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٤ والطبعة الثانية عام ١٩٨٨ وتصدرت الكتاب مقولة إلى الحبيب بورقيبة قال فيها (لقد أخفيت الكتاب تحت غطائي وطالعته خلسة وأنا متأثر شديد التأثر فاطلعت على ما ورد فيه من أرقام وما تضمنه من معلومات عن الضحايا والفقر وشعرت بما جره علينا الاستعمار من ذلٍ وهوانٍ وكنت ابكي . ينظر : صالح الخرفي , بعد العزيز الثعالبي من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب ,ط١,تونس , مطبعة دار الغرب الإسلامي , ١٩٩٥,ص١٩ ٠

١- عبد الملك خلف التميمي , الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي , الكويت , مطبعة الرسالة , ١٩٨٣ , ص٤٧ ٠

٢- الطاهر عبد الله , الحركة الوطنية التونسية , رؤية شعبية قومية جديدة , ١٨٣٠-١٩٥٦ , تونس , منشورات دار المعارف للطباعة والنشر , ١٩٩٣ , ص٥٥ ٠

٣- صالح الخرفي , المصدر السابق , ص٣٢ ٠

وأدخل بعض الإصلاحات على مجلي الشورى الذي أصبح يدعى بالمجلس الكبير[1] وكذلك اوجد وزارة العدل وأطلق الحريات العامة وفق مخطط استعماري نسج خيوطه لكي يتسنى له بعد ذلك إغراق تونس بالجاليات الأجنبية والأوربية من الإيطاليين والاسبانية فضلاً عن الجاليات الفرنسية الضخمة ومن ثم دمج تونس بفرنسا وهي خطة فرنسية ذكية انخدعت بها بعض القوى الوطنية التونسية , الأمر الذي أدى إلى انشقاقات في الحزب الدستوري التونسي , وبعد أن رفضت الحركة الوطنية التونسية مناورات المقيم الفرنسي أيدت مجموعة من الحركات تلك الإصلاحات وقبلوا بها وأسسوا حزباً سمي بحزب الإصلاح وكان على رأس ذلك الحزب المحامي حسن قلاتي والشاذلي القسطلي ولم يعمر ذلك الحزب طويلاً وأصبحوا عبارة عن مجموعة من المثقفين الذين يتعاونون مع الاستعمار الفرنسي ضد شعبهم , وبسبب ذلك فقد قادت سلطات الاحتلال حملة من الاعتقالات ضد الحركات الوطنية وقاداتها[2] ٠وفي عام ١٩٢٣ مارست السلطات الفرنسية ضغوطاً شديدة ضد الباي محمد الناصر وحوصر جيشه بالدبابات والجيش , إلا إن الشعب التونسي أستطاع من أن يجر المقيم الفرنسي بفك الحصار عن الباي ومن ثم تنفيذ المطاليب الوطنية إلا إن الوضع كان قد عاد إلى ما كانت عليه الأمور سابقاً حيث عاد الاضطهاد والقمع من جديد يمارس ضد , بحيث نفي الزعيم عبد العزيز الثعالبي إلى الخارج وأصبح متنقلاً ما بين بغداد وفلسطين ومصر , وربط نضال الحركة الوطنية في تونس بالحركات الوطنية في مصر وفي المشرق العربي[3] وفي عام ١٩٢٩ قررت فرنسا إقامة مؤتمر عام دعت إليه الغلاة من المسيحيين في تونس سمي بالمؤتمر (الافخارستس) وسبب انعقاد هذا المؤتمر هو مرور نصف قرن على احتلال الفرنسي على تونس , وقام الحزب الحر الدستوري بشن حملة ضد ذلك المؤتمر والذي كان الهدف منه هو استعماري بحت حيث أراد المؤتمرون أن ينشروا فكرة إن الاستعمار الفرنسي على تونس هو عمل شرعي , فقد أتى الفرنسيون إلى تونس من أجل تخليص التونسيين من العرب , إلا إن الحركة الوطنية التونسية استطاعت من الوقوف بوجه مقررات هذا المؤتمر مما أدى إلى فشله بالنهاية[4] وفي سنة ١٩٣٢ كان الرأي العام مشغولاً بقضية التجنيس وكانت هناك مجموعة من المثقفين التي كانت تعمل في جريدة ((العمل التونسية))[5] التي كانت تساند الحزب الدستوري , وكان على رأس تلك المجموعة المحامي الحبيب بو رقيبة , وقد برزت هذه وذلك لرفضها لقانون التجنيس الذي اصدرته الحكومة الفرنسية لتجنيس التونسيين بالجنسية الفرنسية , وقد قاومت تلك المجموعة هذا القانون وخاصة الطاهر صفر الذي كان من أبرز من كتب ضد ذلك القانون , بحجة أنه يحاول تنصير المسلمين وفرنستهم والقضاء على الشخصية العربية ٠وفي عام ١٩٣٣ عقد الحزب الدستوري مؤتمراً استثنائياً وانتخب فيه أسرة جماعة العمل في اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري وهم الدكتور محمود الماطري والمحامي الطاهر صفر والمحامي الحبيب بو رقيبة ولم تمر فترة سبعة أشهر إلا ونشبت الخلافات بين أعضاء جماعة العمل لعدة أسباب منها الصراع بين قيادات جماعة العمل بسبب الصراع على قيادة الحزب كانت البلاد التونسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية تضم العديد من التشكيلات السياسية ومن القوى التي لا يمكن تحيدها والتي كان الغرض الأساسي منها هو الاستقلال الذاتي او تحرير البلاد فغنها كانت تتقدم بهذا الطلب فبالإضافة إلى الحزب الدستوري الجديد والذي بقي أهم من كل التشكيلات الحزبية الأخرى على السحاحة التونسية , وذلك بفضل ما له من تأثير داخل البلاد , وبفضل ماضيه , كان ثمة الحزب الدستوري القديم الذي كان يضم تحت لوائه أصوات البرجوازية التقليدية , وكذلك الحزب الشيوعي الذي كان يتوجه إلى الطبقات الكادحة وكان يبذل ما بوسعه في سبيل وحدة الأراضي التونسية , وهنالك أيضاً الشبيبة التونسية (التي تضم طلبة الجامع الأعظم وكذلك القدامى منهم) كانت حركة منظمة ونشيطة , أما أشكال العمل فكانت مختلفة فالأحزاب السياسية كانت تلجأ إلى طرق العمل التقليدية من مقالات صحفية ولوائح واجتماعات وإضرابات ومظاهرات عامة , وقد وحدت التشكيلات السياسية جهودها في عام ١٩٤٥ اندلعت الحرب العالمية الثانية , وشهد الأراضي التونسية عمليات حربية عنيفة بين الألمان والحلفاء , وحاول << الباي محمد المنصف >> الذي أصبح الأمير على تونس ,

---

١- الطاهر عبد الله , المصدر السابق , ص٥٧ ٠

٢- جلال يحيى , العالم العربي الحديث , الفترة الواقعة بين الحربين , القاهرة , مطبعة دار المعرف , ١٩٦٦ , ص٦٨٧ ٠

٣- الطاهر عبد الله , المصدر السابق , ص٥٩ ٠

١- الطاهر عبد الله , المصدر السابق ,ص٥٩ ٠

٢- صحيفة العمل التونسي : وهي الصحيفة التي أسسها الحبيب بو رقيبة في تشرين الثاني عام ١٩٣٢ على أثر خلاف نشب بين مدير صحيفة صوت التونسي وبين هيئة تحريرها وشرعت تلك الصحيفة تطرق موضوعات جديدة مثل الدعوة إلى الأخذ بالصناعات الوطنية التونسية وبسياسة التفرقة بين رواتب الموظفين الفرنسيين واقرانهم من التونسيين , ومن ثم الدعوة على تحرير المرأة , ولمزيد من التفاصيل ينظر صلاح العقاد , المغرب العربي من الاستعمار الفرنسي إلى التحير القومي , ج٢ , القاهرة , دار الطباعة الحديثة , ص١٣٧

استغلال الفرصة , وكان كما قلنا من قبل يكره الاحتلال ويسعى للاستقلال , فاتخذ عدة خطوات ضد المحتل الفرنسي , وعزل رجالهم الموالين لهم في الحكومة , فقام الفرنسيون بعزله ثم نفيه إلى الجزائر حيث مات هناك[1]

المَبحَث الثالث ...

أولاً الحركة الوطنية التونسية خلال الحرب العالمية الثانية :-

خلال الحرب العالمية الثانية قامت الحكومة الفرنسية بتجنيد الآلاف من التونسيين في الحرب إلى جانبها واستعملت أساليب الترهيب تارة والترغيب تارة أخرى في حمل التونسيين على ركوب البواخر والسفن التي كانت تنقلهم إلى ميادين القتال في فرنسا وبلجيكا وقد عبر التونسيين عن احتجاجهم في زجهم بتلك الحرب بأن أعلنوا العصيان الذي اتسع نطاقه ليشمل الجنود التونسيون الذين كانوا يرابطون في تونس وخاصة في تونس العاصمة ومدينة القيروان وقابس , وجابهت السلطات الفرنسية هذه الأعمال بمنتهى القسوة حتى أنها كانت قد جردت الجنود التونسيين من أسلحتهم طوال مدة الحرب[2] .ولما هزمت فرنسا في عام ١٩٤٠ اشتد ساعد الحركة الوطنية في تونس فتقدم وفد يمثل الحزب الدستوري الجديد برئاسة الدكتور ثامر بمذكرة إلى الباي أحمد الثاني في ٣٠ حزيران ١٩٤١ طالب بها بإلغاء الحماية الفرنسية على تونس وبالإفراج عغن المعتقلين السياسيين لكن السلطات الفرنسية اعتقلت الوفد قبل أن يسلم المذكرة إلى الباي , كما لاقى وفد آخر كان قد تقدم بدوره بمذكرة بعد بضعة أسابيع إلى الباي نفس المصير وزج به في السجن ثم اخلي سبيله بعد بضعة أسابيع بتدخل من الباي ومن جهة أخرى زاد الشعب العربي في تونس من مقاومته للسلطات الفرنسية خلال الحرب ونشبت ثورات عنيفة ضد الفرنسيين كثورة دقاش على سبيل المثال أسفرت عن اعتقال المئات من الثوار[3] برز عامل جديد على مسرح الأحداث في تونس عندما أعتلى على عرشها الباي (محمد المنصف) في ١٩ حزيران ١٩٤٢ وكان معروفاً بمواقفه الوطنية , وبتأييده إلى الحزب الدستوري الذي كان عضواً فيه منذ عام ١٩٢٢ , فقد شجع الروح الوطنية , ودافع عن كرامة عرشه وحقوق شعبه فرفع مذكرة إلى حكومة فيشي[4] طالب بها احترام سيادة تونس وبإلغاء اتفاقية المرسى وتحقيق رغبات الشعب أدت تلك المذكرة إلى حدوث توتر في العلاقات بين الباي محمد المنصف وبين السلطات الفرنسية في تونس التي كانت تعارض حكومة فيشي , على إن الأزمة سرعان ما انفجرت بينهما فقد وعدت السلطات الفرنسية في تونس الباي بتلبية مطاليبه وبدأت في الوقت ذاته على التخلص منه [5] .

ثانيا : الإدارة الفرنسية في تونس

نزلت قوات المحور في تونس في ٩ تشرين الثاني من عام ١٩٤٢ عقب اتفاق تم بينها وبين حكومة فيشي وانسحبت القوات الفرنسية من تونس إلى الجزائر[6] , استغل السجناء السياسيون هذا الظرف للفرار من سجونهم ولاستئناف نشاطهم من جديد لاسيما بعد أن تناهت إلى أسماعهم أنباء مفادها إن السلطات الفرنسية كانت تزمع نقلهم إلى ما وراء خطوط القتال[7] .وبعد اشتباكات مع حراس السجن قتل وجرح خلالها عدد من السجناء نجح السجناء أخيراً من الخروج من السجن , وعلى أية حال أصدرت السلطات الفرنسية الجديدة الموالية إلى حكومة فيشي أمراً يقضي بإطلاق سراح كافة السجناء السياسيين في جميع السجون التونسية في كانون الأول من عام ١٩٤٢[8] , وعاد الحزب الدستوري الجديد إلى مزاولة نشاطه بقيادة الدكتور الحبيب ثامر فأسس منظمة للشباب ضمت الآلاف من الشباب الذين أقيمت لهم معسكرات

١- الطاهر عبد الله , المصدر السابق , ص٦٠ .

١- علاء الفاسي , محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى , القاهرة , مطبعة النهضة , ١٩٥٥, ص١٠٢ .

٢- الطاهر عبد الله , المصدر السابق , ص٦٦ .

١- حكومة فيشي : وهي الحكومة التي تأسست في فرنسا بعد سقوط باريس بأيدي الألمان في حزيران عام ١٩٤٠ أثناء الحرب العالمية الثانية وكانت برأسة المارشال بيتان , والذي أعلن بياناً على الشعب الفرنسي قال فيه (إن على البلاد أن توقف القتال , وكان قد أتخذ من مدينة فيشي مقراً له باكورة اعمالها أنها قدمت طلباً إلى الألمان بوقف القتال تمهيداً لعقد هدنة بين ألمانيا وفرنسا ووافق الألمان على الطلب بيتان وفي ٢٢ حزيران ١٩٤٠ وقع الفرنسيون شروط الهدنة مع ألمانيا : لمزيد من التفاصيل عن حكومة فيشي ينظر : خليل علي مراد وآخرون , دراسات في التأريخ الأوربي الحديث والمعاصر , الموصل , مطبعة مديرية الكتب للطباعة والنشر , ١٩٨٨ ,ص٣٨٧ .

٢- جاسم محمد حسن العدول وآخرون , تأريخ الوطن العربي المعاصر , الموصل , جامعة الموصل , مطبعة أبن الأثير للطباعة والنشر , ٢٠٠٥ , ص٥١٥ .

١- محمد العربي الزبيري , تأريخ الجزائر المعاصر ١٩٥٤ – ١٩٦٢ , ج٢ , دمشق , مطبعة اتحاد الكتاب العرب , ١٩٩٩ , ص١٢٧ .

٢- الحبيب ثامر , المصدر السابق , ص١٠٢ .

٣- جون هاتش , تأريخ أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية , ترجمت عبد العليم السيد منسي , القاهرة , مطبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر , ١٩٦٩ , ص٤٣٢ .

لتدريبهم على استخدام السلاح[1] , وبدأ الحزب حملة توعية بين صفوف المواطنين عن طريق مندوبين عنه كانوا يطوفون في كل أرجاء تونس وأصدر الحزب صحيفة يومية جديدة باسم (أفريقيا الفتاة)[2] وحاول محمد المنصف بدوره أن يسترد بعض من سلطاته التي كانت فرنسا قد سلبته منه فألف وزارة اختار أعضاؤها بنفسه دون استشارة المقيم العام كخطوة أولى نحو تحقيق تطلعات الشعب في تسلمه مقاليده بنفسه , لكن تطورات الحرب حالت دون إتمام الوقوف على الحياد بالرغم من العروض السخية التي عرضها الألمان عليه في حالة انحيازه إلى جانبهم وكان من ضمن تلك الامتيازات هو إنهاء الحماية وضم إقليم قسطنطينية ومن الواضح إن محمد المنصف رفض التعاون مع دول المحور لعدم ثقته بهم من ناحية ولتدهور مركزه العسكري في ذلك الوقت من جهة أخرى[3] لم تحترم القوات المتحاربة حياد تونس بل أقحمتها في آتون الحرب فكان أن تعرضت العاصمة التونسية والمدن الأخرى التونسية إلى غارات جوية عنيفة لدرجة إن مدناً كبيرة مثل مدينة سوسة أصبحت خراباً فضلاً عن أسفرت تلك الغارات من تشريد الآلاف من السكان التونسيين , ومما تجدر الإشارة إليه إلى إن قوات المحور أخضعت تونس دون سائر المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا إلى سيطرتها المباشرة , ذلك لأنها اختارت أراضيها كقاعدة لصد الهجمات التي تقوم بها قوات الحلفاء عبر طرابلس من الشرق وعبر الجزائر من الغرب ولذلك شهدت تونس معارك دامية بين قوات الحلفاء من جهة وبين قوات المحور من جهة أخرى[4] طالب كل من الباي محمد المنصف والحزب الدستوري الجديد سلطات المحور بإطلاق سراح الحبيب بو رقيبة وبقية الزعماء المعتقلين في السجون الفرنسية وإعادتهم إلى تونس[5] , فاستجابة السلطات الفرنسية إلى ذلك الطلب أملاً في تقوية مركزها في تونس , فأخلت سراح المعتقلين من سجون فرنسا ونقلتهم إلى روما فنزلوا ضيوفاً على الحكومة الإيطالية في روما وكان ذلك بتأريخ ٩ كانون الثاني ١٩٤٣ وحاولت إيطاليا استغلال وجود الحبيب بو رقيبة على أراضيها للدخول في مفاوضات معه ولكن تلك المحاولات كانت قد باءت بالفشل بعد أن اشترط بو رقيبة إعلان استقلال تونس قبل البدء بالمفاوضات , وكان ذلك الموقف سبباً في اعتقاله من قبل السلطات الايطالية وتأخر عودته إلى تونس ولم يسمح له بمغادرة روما إلا بعد أن تدخل الباي (محمد المنصف) في الموضوع , وبعد الضغط الذي مارسه الشعب التونسي ضد إيطاليا غذ تظاهر أمام المفوضية الايطالية في تونس احتجاجاً على احتجاز بو رقيبة وأخيراً عاد بو رقيبة هو وزملائه إلى تونس في ٨ نيسان ١٩٤٣[6] .

استقر رأي بعض القادة من الحركة الوطنية في تونس على ضرورة السفر إلى أوربا لعرض قضية بلادهم فيها لاسيما وإن السلطات الفرنسية كانت تحول دون تسرب أية أنباء عن الأوضاع في تونس وفي غيرها من أقطار المغرب العربي إلى الخارج ولدعوة الجاليات العربية في أوربا إلى الإسهام في الحركة الوطنية وقد أثمرت جهود هؤلاء في فتح مكتب إعلامي في باريس وآخر في برلين وسمي الأخير بمكتب المغرب العربي وكان يصدر صحيفة باسم صحيفة المغرب العربي باللغتين العربية والألمانية[7] .

ولم تطل فترة بقاء قوات المحور في تونس إذ عادت جيوش الحلفاء إلى احتلال تونس في ٨ مارس ١٩٤٣[8] وعاد الفرنسيون معهم وشرعوا بموجة جديدة من الاضطهاد ضد التونسيين فبدئوا بالباي محمد المنصف إذ اقتادوه إلى مقر المقيمية العامة بصحبة عدد من وزرائه , وانزلوا بهم أنواع الاهانات ومن ثم طلبوا من الباي التنازل عن العرش بحجة إن بقاؤه يشكل تهديداً على الأمن الداخلي والخارجي إلى تونس , وبعد ذلك نفته إلى مدينة الاغواط في الجزائر , واتبعت المعاملة ذاتها مع الحبيب بو رقيبة وحالت دون نشر نداء كان قد أصدره لدى دخول الحلفاء إلى تونس ناشد فيه الشعب التونسي إلى التعاون معهم ضد العدو المشترك وقد استهدفت فرنسا من إجرائها الأخير الحيلولة دون حصول الحبيب بو رقيبة على أي عطف من الحلفاء وبالتالي الانفراد به وهكذا فقد فرضت فرنسا الإقامة الجبرية على بو رقيبة في تونس العاصمة كما فرضت حضراً على نشاط الحزب الدستوري الجديد ثم راحت تضطهد الشعب بحجة إنه اظهر شماتة بهزيمة فرنسا وأصدرت أوامرها بإعدام المئات من المواطنين بحجة تعاونهم مع أعدائهم فاعدموا رمياً بالرصاص دون محاكمة تذكر وألقت المئات منهم في السجون ودمرت المدن والقرى الآمنة وصودرت

٤- الحبيب ثامر , المصدر السابق , ص١٠٤ .

٥- وهي صحيفة التي أصدرها الحبيب ثامر بعد خروجه من السجن في عام ١٩٤٢ ينظر الطاهر عبد الله , المصدر السابق , ص٦٧ .

١- مصطفى العقاد , المصدر السابق , ص١٨٩ .

٢- الحبيب ثامر , المصدر السابق , ص١٠٣ .

٣- جاسم محمد العدول وآخرون , المصدر السابق , ص٥١٦ .

١- الطاهر عبد الله , المصدر السابق , ص٧٥ .

٢- محمد عبد الله عودة إبراهيم ياسين الخطيب , تأريخ العرب الحديث , بغداد مطبعة الأهلية للنشر والتوزيع , ١٩٨٩ , ص١١٢ .

٣- محمد رزوق , دراسات في تأريخ المغرب , ط١ , الدار البيضاء , مطبعة أفريقيا الشرق , ١٩٩٠ , ص١٢٢ .

أملاك التونسيين دون حق يذكر[١] .وبعد ذلك أقدمت فرنسا على سن قانون جديد للجنسية , يجيز سحب الجنسية التونسية وإعطاء الجنسية الفرنسية مكانها لمن يطلبها , وبالتالي يصبح حاملها من رعايا فرنسا ويستحق حمايتها ودعمها , فرد المسلمون على هذا القانون اجتماعيا وعقدياً , فقاطعوا كل مسلم طلب الجنسية الفرنسية , وعدوه خارجاً عن الإسلام ر يصح دفنه في مقابر المسلمين , وهذه القوة في مواجهة القانون , جعلت كثيراً ممن أقدم على التجنس , يتخلى عن الجنسية الفرنسية ويعود لأصله , واغتاظ الفرنسيون بشدة من ذلك , وقام المستوطنون الفرنسيون بأعمال استفزازية لمسلمي تونس[٢] .أثارت تلك السياسة القمعية التي مارستها فرنسا ضد الشعب التونسي غضباً شديداً في أوساط الشعب التونسي واعتبرت عزل الباي محمد المنصف اعتداءً على السيادة التونسية وإن تنازله عن العرش تم بوسائل الإكراه وظل يعتبره الحاكم الشرعي للبلاد , واستغل الحزب الدستوري الجديد مشاعر الاستياء الأمر الذي استطاع معه أن ينجح في عقد مؤتمر في شباط عام ١٩٤٥ دعى فيه إلى ضرورة منح تونس استقلالاً ذاتياً[٣] , وإزاء تعنت فرنسا في الاستجابة إلى مطاليب الشعب التونسي قررت الحركة الوطنية التونسية الاتصال بالجامعة العربية في محاولة للحصول على دعم منها وغادر بو رقيبة تونس في طريقه إلى القاهرة في ٢٦ آذار ١٩٤٥ فوصلها في ١٦ نيسان ١٩٤٥ وقد تولى صالح بن يوسف قيادة الحزب الدستوري الجديد أثناء غياب بو رقيبة في القاهرة , بذل صالح بن يوسف جهوداً كبيرة لتقوية الحزب , ولكسب مؤيدين جدد إليه , وبالرغم من العقبات الكثيرة التي كانت السلطات الفرنسية تضعها في طريقه , اختلقت عدداً من الأحداث بقصد الإيقاع بين الشعب وبين الحزب الدستوري الجديد مثل حادثة الطابور التي جرت في آب من عام ١٩٤٦ , وحادثة زرمدين عام ١٩٤٦ قد قابلت القوات الفرنسية الثورة التي اندلعت في زرمدين وهي قرية تقع على الساحل التونسي بأساليب غاية في القسوة والعنف[٤] ٠أدركت الحركة الوطنية التونسية أهمية وحدتها للتصدي إلى بطش السلطات الفرنسية فعقدت مؤتمراً سرياً في تونس العاصمة في ٢ آب من عام ١٩٤٦ عرف بمؤتمر ليلة القدر حضره ممثلون عن الحزب الدستوري الجديد وآخرون عن الحزب الحر الدستوري إضافة إلى عدد من الشخصيات التونسية البارزة[٥] , وقد دعى المؤتمر إلى وضع حد لنظام الحماية والمطالبة بالاستقلال التام والانظام إلى الجامعة العربية , وقد اقتحمت القوات الفرنسية المؤتمر بعد أن علمت بمكان انعقاده واقتادت معظم الذين شاركوا في ذلك المؤتمر إلى السجن , وتسبب هذا الموقف في نشوب مظاهرات تأييداً للمؤتمر واحتجاجاً على موقف السلطات الفرنسية منه .حاولت السلطات الفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إرضاء الحركة الوطنية فطرحت مشروعاً للإصلاح يستند إلى تأسيس حكومة أعضاؤها من التونسيين والنصف الآخر من الفرنسيين وعلى الحد من النفوذ الفرنسي في تونس وقد رفضت الحركة الوطنية المشروع لأنه لم يتضمن اية استجابة إلى مطاليب مؤتمر ليلة القدر , وأعلنت فرنسا مشروعاً جديداً للإصلاح في آب ١٩٤٧ وقد رفضته الحركة الوطنية أيضا[٦] كان بو رقيبة قد انخرط خلال وجوده في مصر في لجنة تحرير المغرب العربي وعمل في الأمانة العامة له لكنه فصل منها في أعقاب ما تردد عن قيامه باتصالات مع الملحق العسكري في السفارة الفرنسية في القاهرة بهدف عقد معاهدة مع فرنسا الأمر الذي عُدَ خروجاً عن المقررات التي أصدرتها لجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة في عام ١٩٤٧ ونصت علاوة على قرارات أخرى على عدم السماح لأي حزب أو حركة بإجراء اتصالات منفردة مع السلطات الفرنسية , عاد بو رقيبة إلى تونس في أيلول من عام ١٩٤٩ واستلم من جديد رئاسة الحزب الدستوري الجديد وقيادة الحركة الوطنية وسافر في نيسان من العالم التالي إلى باريس حاملاً معه مشروعاً يتألف من سبع نقاط وهي :-

١. إحياء السلطة التنفيذية التي تعتبر جوهر السيادة الوطنية
٢. تأسيس حكومة تونسية خالصة يرأسها وزير تونسي يعينه الباي ٠
٣. إلغاء منصب المقيم العام الذي يسيطر عملياً على مقاليد الحكم في تونس.
٤. إلغاء منصب المراقبين المدنيين ٠
٥. حل الجندرمة الفرنسية التي كانت ترتبط بوزارة الدفاع ٠
٦. تأسيس مجالس بلدية منتخبة ٠

١- جميل بيضوي وآخرون , تأريخ العرب الحديث , ط٢ , أربد , الأردن , دار الأمل للنشر والتوزيع , ١٩٩٢ , ص١٢٣ .
٢- موقع انترنيت , الاستقلال التونسي ١٩٥٥ .
٣- جاسم محمد العدول وآخرون , المصدر السابق , ص٥١٧ .
١- الطاهر عبد الله , المصدر السابق , ص٧٦ .

٢- جلال يحيى , المصدر السابق , ص٦٩٨ .
٣- جلال يحيى , المصدر السابق , ص٧٠١ .

٧. تشكيل مجلس وطني عن طريق الانتخابات لوضع دستور ديمقراطي لتونس على أن تحدد العلاقات بين تونس وفرنسا مستقبلاً على أساس احترام السيادة التونسية والمصالح الفرنسية معاً[١] .

كانت العقبة الرئيسية التي اعترضت طريق المفاوضات بو رقيبة مع الحكومة الفرنسية هو إصرار الأخيرة على عدم الاعتراف بالحزب الدستوري الجديد ممثلاً شرعياً لتونس , وواصلت التأكيد على عدم الاعتراف بغير الباي مفاوضاً شرعياً , وقد بلغ من تشكيك بعض الساسة الفرنسيين بالحزب الدستوري الجديد أن اتهموه بالعمالة الشيوعية الدولية, ولنفي هذه التهمة أنضم الاتحاد العام التونسي للشغل إلى الاتحاد الدولي للعمال الأحرار الذين كان يناهض الشيوعية الدولية[٢] استقر رأي الحكومة الفرنسية على أن تأخذ بيدها المبادرة لحل القضية التونسية فأصدرت تصريحاً في حزيران عام ١٩٥٠ أعربت فيه عن نيتها في منح تونس استقلالاً ذاتياً ومهدت لهذه السياسة الجديدة بأن عينت بيريلي مقيماً عاماً جديداً على تونس وهو من غير العسكريين وتقرر تشكيل حكومة تونسية جديدة برئاسة محمد شنيق لتتولى إدارة دفة المفاوضات مع فرنسا[٣] أشارت سياسة فرنسا الجديدة معارضة شديدة في أواسط المستوطنين الفرنسيين في تونس فقدموا مجموعة من المطالب تضمنت التأكيد على سيادة فرنسا على تونس وإنذار الباي بضرورة احترام المعاهدات وفصل الموظفين الذين ينتمون إلى الحزب الدستوري الجديد من وظائفهم[٤] , ورضخت السلطات الفرنسية إلى ذلك الضغط فقد صرح المقيم الفرنسي في تونس في ١٧ تشرين الأول ١٩٥٠ بأن المشكلة السياسية ليست ملحة في تونس وبأن الحكومة الفرنسية ستوجه اهتمامها من الآن فصاعداً إلى المشاكل الاقتصادية والاجتماعية[٥] , ومرة أخرى تصدت الطبقات العاملة التونسية للرد على السياسة التعسفية لفرنسا ونظم العمال الزراعيون مظاهرات في (انفيدافيل) وقدموا عدداً من الضحايا واتخذت الحكومة الفرنسية من تلك الحوادث ذريعة لإعلان الأحكام العرفية من جديد ولاعتقال عدد من الزعماء الوطنيين , فرنسا فأصدرت مجموعة من المراسيم الإصلاحية الجديدة وكان ذلك في عادت ٨ شباط من عام ١٩٥١ وعلى الرغم من إن هذه الإصلاحات كانت دون المستوى المطلوب إلا إنها مست جوهر نظام الحماية وأبرزن للمرة الأولى منذ إعلان نظام الحماية شخصية السلطة التنفيذية التونسية فأصبح الوزير الأكبر التونسية رئيساً للإدارة العامة في تونس وانتقلت إليه رئاسة مجلس الوزراء بعد أن كان المقيم الفرنسي العام يتولى رئاسته[٦] لم يكن من السهل على السلطات الفرنسية في تونس أن تتقبل الوضع الجديد الذي أوجدته مراسيم ٨ شباط عام ١٩٥١ فحاولت خلق المتاعب للحكومة التونسية ومثال ذلك إن المقيمية الفرنسية العامة طالبت بإقصاء أحد الوزراء في الحكومة التونسية من منصبه وكان عضواً في الحزب الدستوري الجديد[٧] .

ومما تجدر الإشارة إليه فقد غادر رئيس الحكومة التونسية إلى باريس في منتصف تشرين الأول عام ١٩٥١ وفي ٣١ منه سلم مذكرة رسمية إلى الحكومة الفرنسية ضمنها خمسة مطاليب لكن الحكومة الفرنسية رفضتها وأصرت على انتهاج سياسة من شأنها الإبقاء على سيادة الحكومة التونسية وسيادة المقيم الفرنسية العام وهكذا فشلت المفاوضات وعاد رئيس الحكومة التونسية إلى بلاده[٨] , وعلى أثر فشل المفاوضات حدثت موجة من الإضرابات استغرقت ثلاث أيام , عينت على أثرها الحكومة الفرنسية مقيماً جديداً وهو (دي هوتكلوك) وكان من العسكريين ووصل على ظهر سفينة حربية أراد من ذلك إنه يريد إتباع سياسة قمعية في تونس , وإزاء تلك التطورات قرر الحزب الدستوري الجديد عقد مؤتمر استثنائي في كانون الثاني عام ١٩٥٢ لدراسة الموقف ولاتخاذ ما يلزم من قرارات بشأنه وبحث إمكانية إحالة قضية تونس إلى الأمم المتحدة أسوة بالقضية المغربية وأرسلت الحكومة التونسية من جانبها وفداً إلى باريس حاملاً النص الرسمي للشكوى التي تنوي عرضها على مجلس الأمن التابع إلى الأمم المتحدة[٩] .

١- الحبيب عامر , المصدر السابق , ص٤١٤ .
٢- جميل بيضوي وآخرون , المصدر السابق , ص١١١ .
١- عباس العقاد , المصدر السابق , ص١٩٧ .
٢- المصدر نفسه , ص١٩٩ .
٣- جميل بيضوي وآخرون , المصدر السابق , ص١١٢ .
٤- جاسم محمد العدول وآخرون , المصدر السابق , ص٥٢١ .
١- الحبيب عامر , المصدر السابق , ص٤١٨ .
٢- عباس العقاد , المصدر السابق , ص٢٠٠ .
٣- تأسست هيئة الأمم المتحدة بعد مجئ هاري ترومان (**Harry Truman**) إلى الحكم بفترة قصيرة وكان روزفلت قد وضع أسسها خلال فترة الحرب , حينما اجتمع مع رئيس وزراء بريطانيا (ونستون تشرشل **Winston Churchill**) في الرابع عشر من آب / ١٩٤١ على متن إحدى البوارج البريطانية , حيث تم التوقيع على وثيقة عرفت فيما بعد باسم (ميثاق الأطلسي) .وتضمنت مبادئ تشبه إلى حد ما تلك المبادئ التي نادى بها ولسن على أثر الحرب العالمية الأولى , فقد تمحورت مبادئ الوثيقة حول إقامة نظام للأمن العام وضمان السلم الدولي لعالم ما بعد الحرب . ورغم إن هذه المبادئ قد وضعت من الولايات المتحدة وبريطانيا إلا إنها صيغت بشكل لا

وفي ١٥ كانون الثاني عام ١٩٥٢ سلم المقيم الفرنسي العام رسالة إلى باي تونس من وزير الخارجية الفرنسي يطلب إقالة وزارة (محمد شنيق) , وبعد ذلك أصدرت المقيم الفرنسي العام أمراً منع بموجبه الحزب الدستوري الجديد من عقد مؤتمر الثاني , ولم تثني تلك الإجراءات الحركة الوطنية من ممارسة ومواصلة نضالها من أجل الحصول على استقلال تونس وإعلانها دولة مستقلة عن فرنسا[١] ٠

ثالثاً : إعلان الثورة في تونس كانون الثاني :

أعلن الشعب التونسي الثورة ضد فرنسا في ١٨ كانون الثاني ١٩٥٣ وكانت الشرارة التي أشعلت تلك الثورة هو اعتقال بو رقيبة مع عدد من قادة الحزب وتحول إلى ثورة بإعلان إضراب عام في تونس سرعان ما أتسع نطاقه فأعلنت الأحكام العرفية ومنعت الاجتماعات العامة وفرضت حضر التجول وعطلت بعض الصحف , فيما فرضت رقابة مشددة على بعض الأحزاب وكانت الدوريات العسكرية تجوب في كل المدن التونسية وشرعت المحاكم العسكرية بإصدار أحكام جائرة بحق الثوار تراوحت أحكامها بين إعدام والسجن , حضت الثورة في تونس بتأييد الرأي العام العالمي , فقد وقفت الأقطار العربية في الأمم المتحدة إلى جانب القضية التونسية وتقدمت (١٣) دولة آسيوية وإفريقية بمشروع إلى الأمم المتحدة يقضي بإطلاق سراح المعتقلين وباستئناف المفاوضات من تونس[٢] , ورداً على ذلك فقد قامت السلطات الفرنسية باعتقال محمد شنيق وعدد من أعضاء حكومته وزجهم في احد المعتقلات في أقصى الجنوب التونسي , وزاد هذا الإجراء من تفاقم الثورة , وقام عدد من قادة الحركة الوطنية بمهمة تأسيس مراكز إعلامية خارج تونس لنشر أنباء الثورة وفضح السياسة الفرنسية في تونس قابل الشعب التونسي وزارة (صلاح بكوش) التي تشكلت خلفاً لوزارة (محمد المنصف) بمشاعر من الازدراء وجرت محاولات عديدة لاغتياله , أما الباي (محمد المنصف) الذي كان قد رفض أكثر من مرة محاولة المقيم العام الفرنسي في إقالة وزارة (محمد شنيق) وبالتنديد بسياستها فقد ترك قصره في العاصمة وغادرها في عام ١٩٥٢ إلى قرطاجة وانسحب من الحياة السياسية احتجاجاً على السياسة الفرنسية في تونس , أما بالنسبة إلى فرنسا فإنها كانت قد ردت على ذلك الإجراء بأن استمالت ولي عهده عز الدين وأغرته في الظهور في المناسبات العامة عوضاً عن الباي , إلا أنه كان قد اغتيل على يد حركة المقاومة في ٢ تموز عام ١٩٥٣[٣] ٠أما بالنسبة إلى فرنسا فقد عادت من جديد إلى إتباع سياسة الترضية إذ استقر رأي المقيم الفرنسي العام (دي هوتكلوك) على طرح مشروع جديد للإصلاح[٤] وقد دفعه إلى عمل ذلك عدت عوامل منها محاولته دعم مركز حكومة (عز الدين بكوش) وإنهاء الثورة التونسية , كما أنه قام يقطع الطريق أمام الشكاوى التي قدمتها الحركة الوطنية التونسية إلى الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٥٢ سلم المقيم الفرنسي العام رسالة إلى باي , وأحال الباي (عز الدين) مشروع الإصلاح إلى لجنة قوامها (٤٠) عضواً لدراسته وقد رفض هؤلاء المشروع بالإجماع في ٧ أيلول ١٩٥٢ , وزاد ذلك الموقف حماسة الشعب التونسي فشن هجمات على المصالح الفرنسية بموجة من أعمال الانتقام في تونس , وبالمقابل قابل المستوطنون الفرنسيون بموجة من أعمال الانتقام والإرهاب قامت بها جماعة اليد الحمراء وفي العام التالي قررت الحركة الوطنية التونسية التصدي للانتخابات البلدية وإفشالها , فبدأت باغتيال الخونة الذين رشحوا أنفسهم لتلك الانتخابات وردت السلطة الفرنسية على تلك الخطوة بأن اعتقلت العديد من أعضاء الحزب الدستوري الجديد بحجة إن لهم يد في عمليات الاغتيال تلك , وإزاء تلك المواقف قررت فرنسا أن تقدم بعض التنازلات إلى تونس فعينت مقيماً عاماً جديداً هو (فوزار) في أيلول ١٩٥٣ , واستهل حكمه بان أعلن أن تونس في طريقها إلى الحصول على حقوقها المشروعة في نطاق السيادة الوطنية وقد أدى ذلك الإعلان إلى نوع من الاستقرار كما قام بعملية إطلاق سراح عدد من السجناء السياسيين وألغى الرقابة على الصحافة , وسعى على استمالة الباي محمد المنصف بهدف إنجاح مشروع الإصلاح الذي كان يعزم القيام به٠

تكللت جهود المقيم الفرنسي مع الباي بالنجاح إذ اتفقا على إسناد الوزارة إلى محمد صالح مزالي , وبعد أن انتهى من إعداد مشروع الإصلاح فتقرر الاستغناء عن وزارة (صلاح الدين بكوش) فقدمت استقالتها في أواخر شباط عام ١٩٥٤ وتشكلت حكومة جديدة برئاسة (محمد صالح مزالي) في آذار من العام نفسه ,

---

يتعارض مع النظام السوفيتي الأمر الذي لم يمنع ستالين من الاتفاق معها في وجه العدو المشترك والخطر الأكبر الذي مثلته ألمانيا , وبذلك تشكلت الأمم المتحدة ينظر : علي سفيق , العلاقات الدولية في العصر الحديث , مكتبة المعارف للنشر والتوزيع , الرباط . ص٩٣ .

١- جاسم محمد العدول وآخرون , المصدر السابق , ص٥٢٢ .
١- يونس درمونة , تونس بين الحماية والاستقلال و القاهرة , مطبعة الرسالة , دون تأريخ , ص١١٩ .
١- الحبيب عامر , المصدر السابق , ص٤٢٤ .
٢- يونس درمونة , المصدر السابق , ص١٢٠ .

أعلن مشروع الإصلاح في ٤ آذار ١٦٥٤ وبمقتضاه أصبحت غالبية أعضاء مجلس الوزراء غالبيتهم من التونسيين وألغي المجلس الكبير واستبدل بمجلسين احدهما خاص بالتونسيين والآخر بالفرنسيين وتخلصت الحكومة التونسية نوعاً ما من السيطرة الفرنسية , غلا إن الشعب التونسي كان قد استقبل مشروع الإصلاح بنوع من الاعتقالات طالت أعضاء من الحركة الوطنية التونسية وحدثت اشتباكات بين الطرفين , وفي محاولة منها لكبح جماح الثورة فقد أسندت إدارة البلاد إلى السلطات العسكرية ووضعت قادت الحزب الدستوري تحت الإقامة الجبرية .اضطرت الحكومة الفرنسية إزاء اشتداد الثورة إلى تغيير سياستها وكانت أولى بوادر ذلك التغيير هو نقل بو رقيبة من منفاه في إحدى جزر المحيط الأطلسي إلى فرنسا في ١٧ تموز عام ١٩٥٤ وتعيين مقيم عام فرنسي جديد , فضلاً عن ذلك فقد قام (منديس فرانس) الذي تولى رئاسة الحكومة الفرنسية في ١٤ حزيران ١٩٥٤ بزيارة إلى تونس في ٣١ من العام نفسه[١] أعلن خلالها على منح تونس حكماً ذاتياً على أن يتم تحديد شكل العلاقة بين تونس وفرنسا عن طريق المفاوضات , وتشكلت في آب عام ١٩٥٤ حكومة برئاسة طاهر بن عمار للقيام بالمفاوضات , وكانت تضم ثلاثة وزراء من الحزب الدستوري الجديد , بدأت المفاوضات بين الجانبين التونسي والفرنسي في ٤ أيلول ١٩٥٤ ثم انتقلت إلى باريس في ١٣ من الشهر نفسه واستمرت حتى ٣ حزيران عام ١٩٥٥ , ومن الجدير بالذكر إن تياراً معارضاً لإجراء المفاوضات مع فرنسا ظهر وأصر على مواصلة الثورة , وكان يتزعم هذا التيار الحزب الحر الدستوري الذي استأنف نشاطه من جديد , وخلال فترة المفاوضات وجه المقيم العام الفرنسي نداء إلى الثوار طالبهم فيه تسليم أسلحتهم إلى السلطات الفرنسية واعداً إياهم بالعفو , ولم يطمأن الثوار إلى هذا الطلب بل أنهم كانوا قد شددوا من عملياتهم , اضطر المقيم الفرنسي على أثرها إلى وضع شروط جديدة لإنهاء القتال في تونس بالاتفاق مع الحكومة التونسية , وصدر بلاغ مشترك بهذا المعنى في ١٦ تشرين الثاني ١٩٥٤ , وبموجب هذه الشروط تعهدت الحكومة التونسية والمقيمية العامة بضمان سلامة الثوار , وفي ٣ حزيران عام ١٩٥٥ تم التوقيع بين الطرفين على الاتفاقية بصورة رسمية , إلا إن تلك الاتفاقية كانت قد أثارت نوع من الانقسامات بين صفوف الحزب الدستوري الجديد فقد أعلن صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد عن معارضته للاتفاقية وطالب بضرورة حصول تونس على الاستقلال التام وتوحيد النضال في بلاد المغرب العربي , إلا إن الحكومة التونسية أصدرت أمراً باعتقاله بعد أن اكتشفت مخابئ للذخيرة والسلاح تعود إلى الأمانة العامة للحزب ففر بن يوسف إلى ليبيا , حيث بدأ ينضم حركة الكفاح المسلح ضد فرنسا , وإزاء ذلك التطور سافر بو رقيبة إلى فرنسا واقترح عليها منح تونس استقلالاً تاماً أسوة بالمغرب , وهكذا أعلنت الحكومة الفرنسية وبموجب برتوكول أصدرته في ٢٠ آذار عام ١٩٥٦ استقلال تونس استقلالاً تاماً[٢] ٠

الخاتمـــة :

في ضوء ما سبق توصل الباحث إلى جملة من الحقائق نحاول أن نستعرضها على النحو الأتي أن الحركة الإصلاحية في تونس ارتبطت بالمشكلة المادية التي نشأت بسبب إسراف البايات وطمع الوزراء ومن ثم العجز الذي أصاب الميزانية العامة للدولة عن مسايرة ما تطلبه وجود الإصلاح المختلفة ٠

١. وفي خلال الحرب العالمية الأولى وقف الشعب التونسي إلى جانب فرنسا آملين أن ينالوا استقلالهم وحق تقرير المصير , وبعد الحرب طالب التونسيون بحقهم في نيل الاستقلال , فنشأ حزب الحر الدستوري التونسي بزعامة عبد العزيز الثعالبي ٠
٢. وفي عام ١٩٢٩ قررت فرنسا إقامة مؤتمر عام دعت إليه الغلاة من المسحيين في تونس سمي بالمؤتمر (الافخارستي) وسبب انعقاد المؤتمر هو مرور نصف قرن على الاحتلال الفرنسي لتونس , وقام الحزب الدستوري بشن حملة ضد المؤتمر والذي كان الهدف منه هو استعماري بحت حيث أراد المؤتمرون أن ينشروا فكرة إن الاستعمار الفرنسي على تونس هو عمل شرعي , فقد أتى الفرنسيون إلى تونس من أجل تخليص التونسيين من العرب , إلا إن الحركة الوطنية التونسية استطاعت من الوقوف بوجه مقررات هذا المؤتمر مما أدى إلى فشله بالنهاية .
٣. كانت الحركة الوطنية التونسية قد أدركت أهمية وحدتها للتصدي إلى بطش السلطات الفرنسية فعقدت مؤتمراً سرياً في تونس العاصمة في ٢ آب من عام ١٩٤٦ عرف بمؤتمر ليلة القدر وكان السبب من انعقاده هو الوقوف بوجه الاحتلال الفرنسي ومن ثم المطالبة بالاستقلال ٠

١- عباس العقاد , المصدر السابق , ص٢٠٧ .

١- زاهية قدورة , تأريخ العرب الحديث , بيروت , دار النهضة العربية للطباعة والنشر , ١٩٧٥ , ص٤٨١ .

٤. أعلن الشعب التونسي الثورة ضد فرنسا في ١٨ كانون الثاني ١٩٥٣ وكانت الشرارة التي أشعلت تلك الثورة هو اعتقال بو رقيبة مع عدد من قادة الحزب البارزين ٠
٥. وهكذا أعلنت الحكومة الفرنسية وبموجب برتوكول أصدرته في ٢٠ آذار عام ١٩٥٦ استقلال تونس استقلالاً تاماً ٠

قائمة بأسماء المصادر

١. إبراهيم خليل أحمد , تاريخ السيطرة العثمانية على أقطار الوطن العربي, الموصل , مطبعة جامعة الموصل , ١٩٨٢ ٠
٢. إبراهيم بك خليل , تأريخ الدولة العثمانية العلية , ط١ , عمان , مطبعة مؤسسة المختار , ٢٠٠٤ .
٣. أبو القاسم سعد الله ' الحركة الوطنية الجزائرية , ج٣ , مطبعة دار العرب الإسلامية , بيروت , ١٩٩٢ ٠
٤. أبو زيدون , وديع , تأريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط, ط١ , عمان , المكتبة الأهلية للنشر والإعلان , ٢٠٠٣ ٠
٥. الحبيب ثامر , هذه تونس , القاهرة , مطبعة الرسالة , دون تاريخ ٠
٦. إحسان حقي , تونس العربية بيروت , مطبعة دار الثقافة,١٩٦٥, ص١٢٥.
٧. أحمد أمين , زعماء الإصلاح في العصر الحديث , القاهرة و مطبعة المحفظة المصرية , ١٩٤٩.
٨. أحمد بن عامر , زعماء الإصلاح في العصر الحديث , القاهرة , مطبعة المحفظة المصرية , ١٩٤٩ .
٩. جاسم محمد حسن العدول وآخرون , تأريخ الوطن العربي المعاصر , الموصل , جامعة الموصل , مطبعة أبن الأثير للطباعة والنشر , ٢٠٠٥ .
١٠. جرجي زيدان , تأريخ مصر الحديث , ج٢ , ط٢ , القاهرة ,مطبعة الأهالي , ١٩١١.
١١. جلال يحيى , العالم العربي الحديث , الفترة الواقعة بين الحربين , القاهرة , مطبعة دار المعرف , ١٩٦٦ .
١٢. جميل بيضون وآخرون , تاريخ العرب الحديث , ط١ و أربد , الأردن , مطبعة دار الأمل , ١٩٩٢ .
١٣. جون هاتش , تأريخ أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية , ترجمت عبد العليم السيد منسي , القاهرة , مطبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر , ١٩٦٩ .
١٤. خليل علي مراد وآخرون , دراسات في التأريخ الأوربي الحديث والمعاصر , الموصل , مطبعة مديرية الكتب للطباعة والنشر , ١٩٨٨ ٠
١٥. زاهية قدورة , تأريخ العرب الحديث , بيروت , دار النهضة العربية للطباعة والنشر , ١٩٧٥
١٦. ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ,بيروت د.م, ١٩٥٧ ٠
١٧. سمير أبو حمدون , خير الدين التونسي , بيروت , مطبعة الشركة العالمية للكتاب , ١٩٩٢ ٠
١٨. شوقي الجمل و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم , تأريخ أفريقيا الحديث والمعاصر, الرياض, مطبعة دار الزهراء , ط٢ , ٢٠٠٢ ٠
١٩. صالح الخرفي , عبد العزيز الثعالبي من أثاره واخباره في المشرق والمغرب , تونى , مطبعة دار الغرب الإسلامي , ١٩٩٤ ٠
٢٠. صلاح العقاد , المغرب العربي من الاستعمار الفرنسي إلى التحير القومي , ج٢ , القاهرة , دار الطباعة الحديثة .
٢١. صالح الخرفي , بعد العزيز الثعالبي من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب, ط١,تونس , مطبعة دار الغرب الإسلامي ٠
٢٢. الطاهر عبد الله , الحركة الوطنية التونسية , رؤية شعبية قومية جديدة , ١٨٣٠-١٩٥٦ , تونس , منشورات دار المعارف للطباعة والنشر , ١٩٩٣.
٢٣. عبد المجيد نعني , تأريخ الولايات المتحدة الأمريكية , بيروت , مطبعة دار النهضة العربية , ١٩٨٣ .
٢٤. عبد الملك خلف التميمي , الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي , الكويت , مطبعة الرسالة , ١٩٨٣

٢٥. علاء الفاسي , محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى , القاهرة , مطبعة النهضة , ١٩٥٥ .
٢٦. علي شفيق, العلاقات الدولية في العصر الحديث , مكتبة المعارف للنشر والتوزيع , الرباط د٠ت .
٢٧. علي المحبوبي و انتصاب الحماية الفرنسية على تونس , تونس , مطبعة دار سراس للنشر , ١٩٨٦ .
٢٨. محمد الهادي الشريف, ما يجب أن تعرف عن تأريخ تونس ,ط٣ , مطبعة دار سراس للنشر , ١٩٩٣.
٢٩. محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب , تأريخ العرب الحديث , بيروت , مطبعة الأهلية للنشر والتوزيع , ١٩٨٩ .
٣٠. محمد رزوق , دراسات في تأريخ المغرب , ط١ , الدار البيضاء , مطبعة أفريقيا الشرق , ١٩٩٠ .
٣١. محمد العربي الزبيري , تأريخ الجزائر المعاصر ١٩٥٤ – ١٩٦٢ , ج٢ , دمشق , مطبعة اتحاد الكتاب العرب , ١٩٩٩ .
٣٢. نيقولا زيادة , تونس في عهد الحماية ١٨٨١ – ١٩٦٢ . ج٢ , دمشق , مطبعة اتحاد الكتاب العرب .
٣٣. يونس درمونة , تونس بين الحماية والاستقلال , القاهرة , مطبعة الرسالة , د.ت .

الرسائل والأطاريح ....

٣٤. محمد يوسف إبراهيم , ونستون تشرتشل ودوره في السياسة البريطانية حتى عام ١٩٤٥ , أطروحة دكتوراه غير منشورة , كلية الآداب جامعة بغداد , ٢٠٠٥ .

الدوريات ....

٣٥. يقظان سعدون العامر , خصوصيات استعمار الجمهورية الفرنسية الثالثة ١٨٧٠ – ١٩١٤ , مجلة المؤرخ العربي , العدد ٥١ , ١٩٩٤ ١٩٩٥ ٠